التعامل مع الآخرين

وقف «جان» في المحطة مزهوًّا ببذلته العسكرية الأنيقة، وراح يراقب وجوه الناس، وهم ينحدرون من القطار واحدًا بعد الآخر.

كان في الحقيقة يبحث عن وجه المرأة التي يعرفها قلبه، لكنه لم يَرَ وجهها قط.

قالت له: إنها ستعلق على صدرها وردة حمراء؛ ليتمكن من أن يميزها من بين مئات المسافرين.

لقد بدأت معرفته بها منذ ثلاثة عشر شهرًا، كان ذلك في المكتبة العامة في فلوريدا، عندما اختار كتابًا، وراح يقلب صفحاته.

لم يشده ما جاء في الكتاب بقدر ما شدته الملاحظات التي كتبت بقلم الرصاص على هامش كل صفحة.

أدرك من خلال قراءتها أن كاتبها إنسان مرهف الحس دمث الأخلاق، وشعر بالغبطة، عندما قرأ اسمها مكتوبًا على الغلاف بوصفها السيدة التي تبرعت للمكتبة بالكتاب.

ذهب إلى البيت، وراح يبحث عن اسمها، حتى عثر عليه في دليل الهواتف، فكتب لها، ومنذ ذلك الحين بدأت بينهما علاقة دافئة، وتوطدت عبر الرسائل الكثيرة التي تبادلاها.

خلال تلك المدة، أُستدعي للخدمة، وغادر أمريكا متوجهًا إلى إحدى القواعد العسكرية التي كانت تشارك في الحرب العالمية الثانية.

بعد غياب دام عامًا، عاد إلى فلوريدا، واستأنف علاقته بتلك السيدة التي اكتشف فيما بعد أنها في مقتبل العمر، وتوقع أن تكون في غاية الجمال.

اتفقا على موعد لتزوره، وبناء على ذلك الموعد راح في الوقت المحدد إلى محطة القطار المجاورة لمكان إقامته.

شعر بأن الثواني التي مرت كانت أيامًا، وراح يمعن في كل وجه على حدة، فلمحها قادمة في اتجاهه بقامتها النحيلة، وشعرها الأشقر الجميل، وقال في نفسه: هي كما كنت أتخيلها، يا إلهي، ما أجملها!

شعر بقشعريرة باردة تسللت عبر مفاصله، لكنه استجمع قواه، واقترب بضع خطوات في اتجاهها مبتسمًا وملوحًا بيده.

كاد يُغمى عليه، عندما مرّت من جانبه، وتجاوزته، ولاحظ خلفها سيدة في الأربعين من عمرها، امتد الشيب ليغطي معظم رأسها، وقد وضعت وردة حمراء على صدرها، تمامًا كما وعدته حبيبته أن تفعل.

شعـر بخيبة أمل كبـيرة: «يا إلهي، لقـد أخطأت الظن! توقعـت أن تكون الفتـاة الشابة الجميلة التـي تجاوزتني هي الحبيبـة التي انتظرتها أكثر من عام، لأفاجأ بامرأة في عمر أمي، لقد كذبت عليّ».

أخفـى مشاعره، وقـرر في ثـوانٍ أن يكون لطيفًـا؛ لأنها طـوال أكثر من عام، وبينما كانت رحـى الحرب دائرة بعثت الأمل في قلبه على أن يبقى حيًّا.

استجمع قـواه، وحياها بأدب، ومدّ يده مصافحًا: أهلًا، أنا الضابط «جان» وأتوقع أنك السيدة مينال!

قـال يحـدث نفسـه: إن لم يكن مـن أجل الحـب، لتكن صداقـة!، ثـم أشار إلى المطعـم الذي يقع علـى إحدى زوايا المحطة: تفضلي؛ لكي نتناول طعام الغداء معًا.

فـردت: يابني، أنا لست السيـدة مينال، ولا أعرف شيئًا عمـا بينكما، ثـم تابعت تقـول: قبيـل أن يصل القطـار إلى المحطـة اقتربت مني تلك الشابـة الجميلة التي كانت ترتدي معطفًـا أخضر، ومرت بقربك منـذ لحظات، وأعطتني وردة حمـراء، وقالت: سيقابلك شخصـ في المحطة، وسيظن أنك أنا، فإن كان لطيفًا معك، ودعاك إلى الغداء فقولي له: إنني أنتظـره في ذلك المطعم، وإن لم يَدْعُـكِ فاتركيه وشأنه، لقد قالت لي: إنها تحاول أن تختبر إنسانيتك ومدى لطفك.

عانقها شاكرًا، وركض في اتجاه المطعم!

ظـن ذلك الشاب في أعماقـه أن تلك المرأة التي تبدو في عمـر والدته قد غشته، ولم تكن الفتاة التي بنى أحلامه على لقائها، ومع ذلك لم يخرج عن أدبه، بل ظل محتفظًا برباطة جأشه، تذكر كلماتها التي شجعته على أن يبقى حيًّا ومتفائلًا خـلال الحرب، وحـاول في لحظـة أن يتناسـى غشها، فكان لطيفًا، ودعاها إلى تناول الغداء.

تأمل: حقًّـا، إن اللحظات الحرجة في حياتنا هي التي تكشف معدننـا وطيبـة أخلاقنـا. الطريقة التـي نتعامـل بها مع الحـدث، وليس الحدث في حدّ ذاته، هي التي تحدد هويتنا الإنسانية ومدى التزامنا بالعرف الأخلاقي.

obeikandl.com